بسم الله الرحمن الرحيم

ثمامة بن أثال الملك المؤمن حتى النهاية

الصحابي سيدنا ثمامة بن أثال، ولهذا الصحابي قصةٌ فريدة، يبدو أنَّ كل صحابي يمثلُ نموذجاً فذًّا، ففي السنة السادسة للهجرة، عزم النّبي صلّى الله عليه وسلّم، على أن يوسِّع نطاق دعوته إلى الله، لأنَّ دعوة النّبي عليه الصلاة والسلام موجهةٌ إلى الأممِ كلِّها، وإلى كلِّ الشعوب, قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾. الأنبياء السابقون كلُّ نبيٍّ منهم كان مرسلاً إلى قومٍ بالذات، لكن النبي عليه صلوات الله وسلامه أرسله الله إلى أمم الأرض كلها، لذلك كان خاتم النبيّين، فكتب ثمانية كتبٍ إلى ملوك العرب والعجم، بعث بها إليهم يدعوهم فيها إلى الإسلام، وكان مِن جملة مَن كاتبهم ثمامة بن أثال الحنفي، أحد ملوك العرب، سيدٌ من سادات بني حنيفة المرموقين، تلقَّى ثمامة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بالزراية والإعراض، وأخذته العزة بالإثم، فأصمَّ أذنيه عن سماع دعوة الحق والخير، وهذا الملك عنَّت له نزوة طارئة، أن يقتل النبي ويريح الناس منه، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ لا يستطيع أحدٌ أن يقتل النبي، أبداً، هذا معنى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. يعصمك مِن أن تُقْتَل، فإذا قُتِلتَ فقد انتهت الدعوة مع قتلك، هذه عصمة النبي، معصوم عن الخطأ، والله عصمه مِن أن يُقتَل .

فدأب يتحيَّن الفرص للقضاء على النبي صلى الله عليه وسلم، حتى أصاب منه غرة غفلةً، وكادت تتم الجريمة الشنعاء لولا أن نجَّى الله النبي من شرِّه, فإلى هذه الدرجة بلغت عداوته للنبي عليه الصلاة والسلام, لكن ثمامة إذا كان قد كفَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكفَّ عن أصحابه، حيثُ جعل يتربَّصُ بهم، حتى ظفر بعددٍ منهم، وقتلهم شرَّ قتلة، لذلك أهدرَ النبي عليه الصلاة والسلام دمه، وأعلن هذا في أصحابه، أنّ هذا الرجل دمه مهدور.

ولم يمض على ذلك طويل وقتٍ حتى عزم ثمامة بن أُثال على أداء العمرة، على النمط الجاهلي، فانطلق من أرض اليمامة، مولياً وجهه شطر مكة، وهو يمنِّي نفسه بالطواف حول بالكعبة، والذبح لأصنامها، وبينما كان ثمامة في بعض طريقه، قريباً من المدينة نزلت به نازلة، لم تقع له في الحسبان، ذلك أن سريةً من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تجوس خلال الديار، خوفاً من أن يطرق المدينة طارق، أو يريدها معتدٍ بشر، فأسرت السريةُ ثمامةَ بن أثال، وهي لا تعرفه، وأتت به إلى المدينة، وشدّته إلى ساريةٍ من سواري المسجد، وهذه طريقة سجنه, وهي تنتظر أمر النبي عليه الصلاة والسلام في شأن هذا الأسير، ولما خرج النبي عليه الصلاة والسلام إلى المسجد، وهمَّ بالدخول فيه، رأى ثمامة مربوطاً في السارية، فقال لأصحابه: ((أتدرون من أخذتم؟ قالوا: لا, يا رسول الله! قال: هذا ثمامة بن أثال الحنفي. ماذا قال النبيّ عليه الصلاة والسلام لهذا الملك الحاقد الذي أراد قتله، والذي جمع أصحاباً له، ونكَّل بهم وقتلهم شر قتله؟ هنا الوقفة، وهنا الحقيقة، فأيّ إنسان على وجه الأرض تمكَّن مِن عدوٍّ لدودٍ، وخصمٍ عنيدٍ، ومبغضٍ حاقدٍ، وألقى القبض

عليه، فلا بدَّ أن يقتله، وربما كان قتله لا يشفي غليل الأول، فماذا يفعل به إذًا؟ يأمر بتعذيبه، والتمثيل به، ثم قتله– قال عليه الصلاة السلام، حينما رأى ثمامة بن أثال مربوطاً إلى ساريةٍ من سواري المسجد، قال: أحسنوا إسارَه, –لماذا؟ إنه خلاف المألوف، الجواب هو أن **النبي عليه الصلاة والسلام، لا يمكن أن يبغض إنساناً لذاته، لكن يبغضه لعمله، فإذا كان هناك أملٌ في هدايته، ونقله من الضلالة إلى الهدى، ومِن الضياع إلى الرُشد، ومن الخطأ إلى الصواب، فمرحباً بذلك،** فالنبيّ عليه الصلاة والسلام، قال: أحسنوا إسارَه, أيْ أحسِنوا إلى هذا الأسير– ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى أهله، وقال: اجمعوا ما كان عندكم من طعام، وابعثوا به إلى ثمامة بن أثال, –ليطعمه من طعام بيته، فجمع من طعام أهله شيئًا، وأرسله إلى ثمامة بن أثال– ثم أمر بناقته أن تُحلب له في الغُدو والرواح، وأن يُقدَّم لبنها إلى ثمامة بن أُثال)).

ما هذا يا رسول الله؟! هذا الذي أراد أن يقتلك، أراد أن ينكِّل بأصحابك، وبل نكَّل بهم، وجمع عدداً منهم، وقتلهم شر قتلة، ثم تجمع له من طعام بيتك، وتأمر بحلب ناقتك، وترسلها إلى ثمامة، ليأكل وليشرب، وتمَّ ذلك كلُّه قبل أن يلقاه النبيّ عليه الصلاة والسلام، وقبل أن يكلمه, بعد أن أكل وشرب وشبع، وشعر أن هذا من عند النبي عليه الصلاة والسلام أقبلَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام على ثمامة وقال: ((ما عندك يا ثمامة؟ فقال ثمامة: عندي يا محمد خير، فإن تقتل تقتل ذا دم, –يعني إن قتلتني فأنت محق، والحق معك، وأنا أستحق أن أُقتل لأنني قاتل– وإن تنعم علي بالعفو، تنعم على شاكر– أنا لا أنسى لك هذا المعروف– وإن كنت تريد المال، فسَلْ تُعطَ منه ما شئت فالنبي ما قال شيئًا، تركه النبيّ عليه الصلاة والسلام يومين على حاله، يؤتى له بالطعام والشراب، ويحمل إليه لبن الناقة، ثم جاءه ثانيةً، والثالثة وسأله نفس السؤال وكان منه نفس الإجابه. فالتفت النبيّ عليه الصلاة والسلام إلى أصحابه، وقال: أطلِقوا ثمامة، وفكُّوا وثاقه، وأطلقوه))، يعني عفا عنه، لكن هذا من شأن النبيّ عليه الصلاة والسلام، فالله عزَّ وجل فتح بصيرته.

غادر ثمامة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومضى حتى إذا بلغ نخلاً من حواشي المدينة، قريباً من البقيع، فيه ماءٌ، أناخ راحلته عنده، وتطهَّر، ثم عاد أدراجه إلى المسجد، فما إن بلغه، حتى وقف على ملأٍ من المسلمين, وقال: ((أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وقال: يا محمد، والله ما كان على ظهر الأرض وجهٌ أبغض إليّ من وجهك, وقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه كلُّها إليّ ووالله يا محمد، ما كان دينٌ أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك اليوم أحبَّ الدين كله إليّ، ووالله يا محمد، ما كان بلدٌ أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ, ثم قال: يا محمد، لقد كنت أصبت في أصحابك دماً، فما الذي توجبه عليّ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لا تثريب عليك يا ثمامة، فإن الإسلام يجُبُّ ما قبله. –أنت حينما تتوب فكل شيءٍ سبق هذه التوبة عفا الله عنه، وبشَّره بالخير، الذي كتبه الله له بإسلامه، فانطلقت أسارير ثمامة، وانفرجتْ– وقال: والله يا محمد، لأُصيبن من المشركين أضعافَ ما أصبت من أصحابك، ولأضعن نفسي وسيفي ومن معي في نصرتك، ونصرة دينك، يا رسول الله! إن خيلك أخذتني، وأنا أُريد العمرة، فماذا ترى أن أفعل؟, فقال عليه الصلاة والسلام: امضِ لأداء عمرتك، ولكن على شِرعة الله ورسوله. مضى ثمامة إلى غايته، حتى إذا بلغ بطن مكة وقف يجلجل بصوته العالي، قائلاً: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد, والنعمة, لك والملك، لا شريك لك، لا شريك لك)) ولا تزال مكة بيد الكفار،

ولا يزال فيها الأصنام. سمعت قريشٌ صوتَ التلبية، فهبَّت غاضبةً مذعورة، واستلت سيوفها مِن أغمادها، واتجهت نحو الصوت لتبطش بهذا الذي اقتحم عليها عرينها، ولما أقبل القوم على ثمامة، رفع صوته بالتلبية، فهمَّ فتىً من فتيان قريش أن يرديه بسهمٍ، فأخذوا على يديه، وقالوا: ويحك أتعلم من هذا؟ إنه ثمامة بن أثال، ملك اليمامة، فقتْلُه يشعل علينا نارَ حربٍ كبيرةٍ، وقال الناصح: والله إن أصبتموه بسوءٍ لقطع قومه عنا الميرة، وأماتونا جوعاً, ثم أقبل القوم على ثمامة، وقالوا: ما بك يا ثمامة، أَصَبَوْتَ؟ يعني أسلمت، وتركتَ دينك ودين آبائك, قال: ما صبوت، ولكني اتبعتُ خير دينٍ، اتبعت دين محمد, ثم أردف يقول: أُقسم بربِّ هذا البيت إنه لا يصل إليكم بعد عودتي إلى اليمامة حبةٌ من قمحها، أو شيءٌ من خيراتها. ثم اعتمر ثمامة على مرأى من قريش كما أمره النبيّ عليه الصلاة والسلام أن يعتمر، وذبح تقرباً إلى الله، لا للأصنام، ومضى إلى بلاده، فأمر قومه أن يحبِسوا الميرة عن قريش، فصدعوا لأمره، واستجابوا له، وحبسوا خيراتهم عن أهل مكة.

أخذ الحصار الذي فرضه ثمامة على قريش، يشتدُّ شيئاً فشيئاً، فارتفعت الأسعار، والآن النظام العالمي الجديد يتخذُّ الحصار علاجًا، لكن بغير الحقّ، بل بالباطل، فارتفعت الأسعار وفشا الجوع في الناس، واشتد عليهم الكرب، حتى خافوا على أنفسهم وأبنائهم أن يهلكوا جوعاً، عند ذلك كتبوا إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم، صار النَّبي ندًّا لهم، كان ضعيفاً مستضعفاً، ائتمروا على قتله، أخرجوه من بلاده، نكَّلوا بأصحابه، وهم أشداء أقوياء، ولكن الله لهم بالمرصاد ثم أرادوا أن يتوسَّلوا إلى النّبي عليه الصلاة والسلام ليأكلّوا، فكتبوا إلى النّبي عليه الصلاة والسلام قائلين: إن عهدنا بك أنك تصل الرحم، وتحضُّ على ذلك، وإنَّ ثمامة بن أُثال، قد قطعَ عنا ميرتنا، وأضرَّ بنا، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يبعث إلينا بما نحتاج إليه فافعل. عرفوا أنّ مفتاحه عند رسول الله، **فكتب النّبي عليه الصلاة والسلام إلى ثمامة بأن يطلق لهم ميرتهم، فأطلَقها.**

ظلَّ ثمامة بن أُثال ما امتدّت به الحياة وفياً لدينه، حافظاً لعهد نبيه، فلّما التحق النبي صلّى الله عليه وسلّم بالرفيق الأعلى، طفق العرب يخرجون من دين الله زرافاتٍ ووحداناً, الذي دخل بسهولة، يخرج بسهولة، أمّا الذي دخل بعد قناعة عميقة، وبعد محاكمة فكرية، فعزيزٌ عليه الارتداد، ولن يكون. لما قام مسيلمة الكذاب، في بني حنيفة، يدعوهم إلى الإيمان به، وقف ثمامة في وجهه، وقال لقومه: ((يا بني حنيفة، إياكم وهذا الأمر المظلم، الذي لا نور فيه، إنه واللهِ لشقاءٌ كتبه الله عزَّ وجل على مَن أخذ به منكم، وبلاءٌ على من لم يأخذ به، ثم قال: يا بني حنيفة، إنه لا يجتمع نبيَّان في وقتٍ واحد، وإن محمداً رسول الله لا نبي بعده، ولا نبي يُشْرَك معه، ثم قرأ عليهم: ﴿حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ثم قال: أين كلام الله هذا من قول مسيلمة؟

فهذا ثمامة بن أُثال، فكم كان البَوْنُ شاسعًا بين حياته قبل الإسلام، يوم كان ملِكًا، غاشمًا، حقودًا، قاتلاً، وأراد أن يقتل النّبي، ثمَّ صُرِف عن قتله، وجَمَع نفرًا من الصحابة وقتلهم شرَّ قتله، فلمّا عرف الله عزَّ وجل، أصبح إنسانًا آخر، كلُّ طاقاته، وكلُّ إمكاناته موظفةٌ في خدمة الحق.